



# العقل العربي

## 45

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

### الفصل الحادي عشر الفن، الموسيقى، الأدب

#### 3. الأدب

لا نحتاج في هذا المجال إلا بضع كلمات كي نستنتج بأن الخصائص المميزة للفنون البصرية والموسيقى عند العرب تتواجد هي ذاتها في الأدب العربي أيضا. حيث وجدنا في ما سبق أن التعبير من خلال الفنون البصرية والموسيقى في التوجه الفني العربي يتميز باستخدام وحدات صغيرة تستخدم كأحجار بناء أساسية: وفي الفنون كليهما تحتوي البنية الكاملة للعمل الفني على تكرار لا ينتهي من وحدة بنيوية واحدة أو اثنتين. يضاف إلى ذلك أن عدم اكتراث الفنان العربي التقليدي بالوقت يجعله لا يعمل جاهدا في سبيل تنفيذ حبكة فنية متصاعدة تنتهي بذروة يخف عندها اندفاعه الفني وينحسر. وإنما تجده يرضى بالتكرار مع بعض التعديلات الطفيفة التي يجربها لملء حيز فارغ من مكان أو زمان. وفي بعض الأحيان، وبالأخص في أضخم الأعمال الفنية الهندسية التي أنتجها العرب، نجد أنه بالنظر إلى الوحدات الفنية التي تتكرر مرارا لإنشاء بنية كلية ضخمة، نستطيع أن نستنتج بأن هذه الوحدات شديدة التعقيد في ذاتها. وفي الوقت ذاته لا يمكن للعين أن تخطئ في ملاحظة مفهوم البنية الكلية المكونة من أجزاء متطابقة كليا أو جزئيا.

وفي الأدب العربي توجد مجموعة مشابهة من الخصائص السابقة، كما نص على ذلك دارسو الأدب العربي من النقاد العرب والغربيين على حد سواء ممن جعلتهم ألفتهم بالأدب الغربي يحسون بهذه الظاهرة. ومن هؤلاء هاميلتون غيب الذي عبر عن هذه الملاحظة بوضوح عندما ذكر بأن:

البيئة المكانية العربية فرضت قلبها على العادات والفكر والخطاب. فطبعها

## الفصل الحادي عشر: الفن، الموسيقى، الأدب

بالتكرار والانتقال المفاجئ، وهو أمر يكاد يعاد إنتاجه في كافة أوجه الحياة والأدب عند العرب.<sup>1</sup>

ومع التكرار يأتي التطبّع. ففي القصيدة العربية المبكرة نلاحظ أن:

الهدف النهائي هو تمجيد النفس، أو الفخر بقبيلة الشاعر، أو السخرية من الأعداء أفرادا كانوا أم جماعات، أو مدح أحد المحسنين.

وهذه القصيدة تبدأ تقليدياً بموضوع نمطي، يدعى اصطلاحاً «النسيب»، وفيه:

يفترض بالشاعر أن يكون مسافراً على ظهر جمل مع مرافق أو مرافقين اثنين. ويقوده الدرب إلى موضع كان سابقاً يحوي خيم قبيلته أو قبيلة أخرى ودودة له، حيث يجد آثارها لا تزال ماثلة للعيان. فيلتمس من رفاقه أن يتوقفوا للحظة، حيث يستذكر بأسى كيف أمضى قبل سنين طويلة أسعد أيام حياته مع محبوبته في ذلك المكان. أما الآن فقد فرقتهما الحياة بتغيرات الدائمة، ولا يوجد في المكان إلا غزال بري يتجول هنا وهناك.<sup>2</sup>

وبعد أربعة عشر قرناً من هذا الشكل المبكر للقصيدة، لا يزال شعراء القبائل البدوية ينظمون القصائد التي بقي معظمها يفتح بوصف الأطلال التي بقيت من موضع تخيم محبوبته الشاعر. وبما أن هؤلاء الشعراء لا يزالون أميين فلا توجد نسخ محددة من شعرهم بشكل مكتوب. وعندما يقوم الشاعر بنظم قصيدة يحفظها أصدقاؤه عن ظهر قلب، ثم يتناقلها الآخرون عنهم، إن طريقة البث الشفوي هذه لها عاقبتان: الأولى أن كل قصيدة، أو كل بيت منها، يعرف بعدة روايات، حيث يقوم الرواة بتغيير الكلمات أو يضيفون أبياتاً أخرى إلى القصيدة، وهذه العملية هي شبيهة تماماً بما يفعله العازف الموسيقي الذي يغير الشكل الأصلي للقطعة الموسيقية من خلال تقديمها مع الإضافات التي يراها مناسبة.

(1) هاميلتون غيب (Hamilton A. R. Gibb): مقدمة في الأدب العربي: ص3.

(2) المصدر السابق: ص15.

## الفصل الحادي عشر: الفن، الموسيقى، الأدب

أما العاقبة الأخرى فهي أن القصائد، والطويلة منها بالأخص، لا تتم روايتها من قبل رواة مختلفين بالترتيب الأصلي الذي ينبغي أن تكون عليه. وهذا التغيير في الترتيب لا يكون ممكناً، بالطبع، إلا عندما لا يوجد رابط منطقي ما بين البيت وما يليه، أو عندما يغيب التعاقب بينهما، وعندها يكون كل بيت أو مقطع وحدة مستقلة تعبر عن فكرة منفصلة؛ وهنا يمكن ترتيب المقاطع بعدة أنماط. وهنا نجد أيضاً تشابهاً بين بنية القصيدة وبنية القطعة الموسيقية والعناصر المكونة لنمط مستخدم في الديكور.

لقد لاحظ البروفيسور ايلي سالم، وهو ناقد مرموق للأدب العربي، الظاهرة نفسها في النثر العربي، فكتب: «تأتي الفكرة للعربي على شكل ومضات... لا على شكل تسلسل منطقي كامل يتسم بالتكشف التدريجي واستنفاد الطاقات». حتى أنه في الكتب العربية التي تتناول التاريخ السياسي فلا يوجد إلا بالكاد رابط ما بين المقاطع المتعاقبة<sup>1</sup>. فهنا يتمثل كل مقطع مع الوحدة الأساسية في فنون الديكور والموسيقى عند العرب، فيستند التأثير الكلي إلى التمثيل التسلسلي للمقطع بالتعاقب. أما في ما يخص التكرار، والذي لا يمكن تخيل حال الفنون البصرية والموسيقى عند العرب من دونه، فإن وجوده في التعبيرات الكلامية العربية، منطوقة كانت أم مكتوبة، فمعروف جداً إلى حد لا يحتاج فيه إلى توثيق.

كذلك يوجد تشابه آخر بين المجالات الفنية الثلاثة وهو أن الهدف الأساسي للعمل الفني ليس الإبداع بل هو إعادة التعبير عن نمط راسخ قد يفضل البعض أن يضيف إليه تفصيلاً هنا أو تعديلاً هناك. وما عليك إلا أن تقرأ نصاً من العصر العربي الوسيط لتكتشف أن هذه الصفة تشكل جزءاً من التقاليد في كتابة الأدب العربي، كذلك تكفي قراءة نص من الأدب العربي الحديث لتلاحظ المدى الذي وصل إليه شيوع تكرار ما قاله الأقدمون، بل حتى ما قاله الكاتب نفسه في وقت سابق.

(1) ايلي سالم: (الشكل والمادة: فحص نقدي للغة العربية): ص 17.